

العنوان:	تحولات الفضاء العمومي في الفلسفة السياسية المعاصرة : من هايرماس إلى نانسي فرايزر
المصدر:	المجلة العربية لعلم الاجتماع (إضافات) - لبنان
المؤلف الرئيسي:	علوش، نور الدين
المجلد/العدد:	ع26,27
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2014
الشهر:	صيف
الصفحات:	77 - 90
رقم MD:	630890
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	EduSearch
مواضيع:	الفضاء العمومي ، الفلسفة السياسية
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/630890

تحولات الفضاء العمومي في الفلسفة السياسية المعاصرة: من هابرماس إلى نانسي فرايزر

نور الدين علوش (*)

باحث من المغرب.

مقدمة

كثر الحديث عن "الفضاء العمومي" في خضم التحولات السياسية التي تعرفها بلدان الوطن العربي، نظرا إلى دوره الكبير في ترسيخ قيم الديمقراطية والتعددية والحرية. وبالرغم من أنه يعكس تجربة تاريخية أوروبية أساسا، في أبعادها الفلسفية والسياسية والاقتصادية التي تتعلق بممارسة ديمقراطية سياسية، فإن المصطلح يحتاج إلى توسيع المجال الحضاري لتشغيل المفهوم أخذا بعين الاعتبار التحولات الكونية التي خضع لها المفهوم من جهة (العزماني، 2013)، كما يحتاج إلى استيعاب التطلعات الوطنية للتحقق الثقافي والسياسي من جهة ثانية.

بالإضافة إلى أن هناك تفاوت حاصل بين التصورات الكلاسيكية التي تحكم بنية الفضاءات العمومية (هابرماس، حنا أرنت..) والتي هيمنت على الساحة الفكرية والفلسفية منذ القرن العشرين إلى بداية الألفية الثالثة؛ وبين التصورات الجديدة تضي على الفضاء العمومي معنى جديدا: نانسي فرايزر، آلان تورين، سوزان جورج، نعوم تشومسكي...

أولا: تحديد مفاهيمي

1- الفضاء العمومي

يحمل الفضاء العمومي دلالة جدلية مركبة، في معناه الإجمالي يصف اصطلاح الفضاء العمومي، ذلك "الفضاء الاجتماعي الذي يعرف تبادلات عقلانية ونقدية بين الذوات (الفردية والجماعية) التي تسعى إلى بلوغ حالة التوافق حول القضايا التي تتصل بالممارسة الديمقراطية" (العزماني، 2013).

قدم هابرماس في كتابه الحق والديمقراطية تعريفا جديدا للفضاء العمومي، يراجع فيه تعريفاته القديمة حيث يقول: "إذا كان الفضاء العمومي ظاهرة اجتماعية على المستوى نفسه من الأساسية التي للفعل الفاعل المجموعة أو الجماعة، فإنه لا يمكن تصوره كمؤسسة أو كتنظيم، كما إنه ليس ببنية معيارية متميزة الاختصاصات والأدوار؛ إنه ليس مبنيا كنسق

(*) البريد الإلكتروني:

وهو يقبل بعض الحدود الداخلية ولكنه يتميز بإزاء الخارج بأفاق مفتوحة متحركة ومنفودة. من الممكن وصف الفضاء العمومي بشكل أفضل كشبكة تمكن من نقل المضامين والمواقف المتخذة من ثم الآراء" (Habermas, 1997: 387).

ذلك أن الفضاء العمومي لا يخلق إراديا قبل أن يتم شغله من قبل فاعلين استراتيجيين يتعين على الفضاء العمومي والعموم الذي يشكل قاعدته أن يتأسس كبنية ذات استقلالية وأن يعاد إنتاجها بوسائلها الذاتية (Habermas, 1997: 392).

وتتمثل أهمية هذه النسخة المنقحة لتعريف الفضاء العمومي بكونها تفتح المجال أمام مراجعة المفهوم بشكل أكثر تعددية، وبحدود متغيرة، أي بشكل يتجاوز التمييز الكلاسيكي بين العام والخاص.

وتجدر الإشارة إلى أن الفيلسوف كانط هو المنظر الحقيقي للفضاء العمومي في مقاله التأسيسي ما التنوير؟ بحيث دافع بقوة عن الجرأة في استعمال العقل، تلك الجرأة التي تفتقر الشجاعة والاستقلالية والمسؤولية والإرادة. ولكن أي استعمال ممكن للعقل؟ يميز كانط بين الاستعمال الخاص للعقل والاستعمال العمومي له، وهو التمييز الذي ساهم بشكل كبير في نحت ما سماه هابرماس "الفضاء العمومي"، ذلك الفضاء الذي يتداخل فيه الفعل السياسي من جهة، لتأطير الممارسة السياسية بواسطة الدعاية لتوجيه الرأي العام، ومن جهة العمومية. وهنا تصير العمومية معيارا لكل تفكير يحكم أي فعل إنساني في الزمان والمكان وكل قضية من قضايا الشأن العام: الحق والسلطة، العدالة، الشرعية... ومن جهة أخرى الفعل التواصلي وما يفرضه من أخلاقيات للمناقشة وتداول من أجل الإجماع.

2- الفلسفة السياسية

لا يزال الكثير من المفاهيم القريبة من الفلسفة السياسية، كالنظرية السياسية وعلم السياسة والفكر السياسي، يثير سوء الفهم، لذا وجب التدقيق في المصطلحات وتحري الدقة حتى نعي الحدود الفاصلة بينها:

• الفلسفة السياسية هي ذلك الفرع من فروع الفلسفة الذي يركز بحثه حول اكتشاف الحكمة والحقيقة المتعلقة بالمبادئ الأصولية للحياة السياسية، ومعرفة علاقات هذه المبادئ بعضها ببعض، وعلاقات المبادئ السياسية بالمبادئ الاقتصادية والثقافية. وتعبير أدق، يقدم لنا المفكر الهندي فراما تعريفا دقيقا للفلسفة السياسية التي يعترها توليد وتركيب الآراء والتأملات والبداهيات والافتراضات والقواعد والتعميمات المتصلة بتوزيع القوة واستخدامها في المجتمع (أحمد، 2011: 40). أي بتكوين الحكومة وتعيين مهامها وتحديد سلطاتها وتأسيس مبادئ المجتمع وغاياته.

- أما علم السياسة فيمثل الوجهة المقابلة للفلسفة السياسية؛ إذ إنه من حيث كونه علما يعد خطابا منهجيا يتناول الواقع وتعني منهجيته التماسك الداخلي أي الخلو من التناقض. وهو يتناول الوقائع السياسية أي ما هو كائن.

● **النظرية السياسية:** هي محاولة للمزج بين الفلسفة السياسية وعلم السياسة، الذي يشترك معها (الفلسفة السياسية) في أن كليهما يقوم على التأمل والنظر، ومن ثم قادران على إصدار أحكام قيمة. ومن ناحية أخرى فإنها تهتم كما علم السياسة بمجال الوصف والتفسير. ومن هنا يمكن القول إنها تحمل وجهين: الأول معياري والثاني تجريبي.

- **الفكر السياسي:** هو تلك النظريات والقيم التي تجعل من السياسة أمرا مهما.

ثانيا: القضايا الكبرى للفلسفة السياسية

1- القضية الأولى: وظائف الدولة الأساسية

بشكل عام، يمكن التمييز بين تيارين رئيسيين: يؤمن الأول بتوسيع نطاق الدولة لتولي أداء منظم ووظائف الحياة السياسية؛ ويؤمن الثاني بضرورة حصر نطاق الدولة في أضيق مدى ممكن وتخصيصها لأداء وظيفتي حفظ الأمن وتنسيق أعمال الأحزاب وجماعات المصالح والضغط المختلفة في المجتمع، حيث تقوم هذه المنظمات بأداء منظم المهام السياسية نيابة عن الدولة.

2- القضية الثانية: من يحكم؟

فالسؤال عن الشخص أو الجهة المؤهلة لقيادة السلطة السياسية كان أحد الأسئلة الأكثر ترددا ومجثا في الفلسفة السياسية على مر العصور. وقد مال بعض الفلاسفة إلى وضع السلطة في يد الإنسان الأرحح عقلا والأعمق حكمة. في حين مال آخرون إلى وضعها في يد الشخص الأقوى، ومال آخرون إلى وضعها في يد النخبة المتميزة من الشعب، ورجح آخرون حكم الأغلبية ومضاء الإرادة الشعبية.

3- القضية الثالثة: مصدر القانون وإلزاميته

ظلت قضايا مصدر القانون ومصدر سعيته وقوة إلزاميته ضمن أهم القضايا التي رافقت تطور الفلسفة السياسية، وانشغل بها معظم الفلاسفة والمفكرين السياسيين. فهناك من اعتبر أن التقاليد والأعراف الاجتماعية هي المصدر الأصيل للقانون في حين رأى آخرون أن العقل الإنساني هو المصدر الوحيد الذي ينبغي أن تنبثق منه القوانين. وفي ما يتعلق بمدى فعالية القانون نجد أنفسنا أمام تيارات: التيار الأول، يدعو إلى تفعيل القانون بقوة كهوبز؛ والتيار الثاني يمثل الماركسيون والفوضيون يدعو إلى تهميش القانون؛ أما التيار الثالث فيمثل الليبراليون المحدثون فيتوقفون في منتصف الطريق مقرررين حدوده في حدود فعل الدولة المحدود في المجتمع.

4- القضية الرابعة: فلسفة التاريخ

تعنى فلسفة التاريخ باستبطان حركته الداخلية، لمعرفة وجهتها العامة، واستنباط خلاصات الدروس والعبر التي تنطوي عليها الأحداث التاريخية. ومن المسائل المركزية التي تحدثت عنها مختلف مباحث فلسفة التاريخ مسألة: إلى أين يتجه الزمن؟ وهل يسير الزمن بأهله بحركة حتمية أو إرادية؟ وهل يمكن أن يؤثر الإنسان في مسير الزمن أم لا؟ (أحمد، 2011: 331).

ثالثا: الفضاء العمومي البرجوازي عند هابرماس

نبذة عن هابرماس

ولد الفيلسوف الألماني هابرماس عام 1929 في دوسلدورف، وهو يعد من فلاسفة الجيل الثاني لمدرسة فرانكفورت.

يعد هابرماس جزءا أساسيا مما يسمى بنادي الخمسة الكبار، والذي يضم مجموعة من أهم الفلاسفة المعاصرين، والمتضمن كلا من: بول ريكور وإيمانويل ليفيناس وجاك دريدا وكارل اتو ايل، علاوة على هابرماس. ويعد بذلك من أكبر فلاسفة الغرب اليوم وأهم الفلاسفة الألمان المعاصرين. وبسبب دفاع هابرماس عن العقل وقيم الحداثة والتنوير، فإنه يكاد يكون أهم فيلسوف اليوم بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف، وقد اقتفى هابرماس المسار التقليدي الألماني لتكوين شخصية الفيلسوف. فمن السمات لهذا المسار الدخول إلى المؤسسة الأكاديمية الجامعية ومتابعة الدراسات الفلسفية فيها بكل مراحلها المتدرجة حتى الحصول على درجة الدكتوراه... حيث مر كل فلاسفة ألمانيا الكبار بهذه المراحل مثل كانط وهيغل... كما إن ارتباطه الأكاديمي توازى مع إبداع فكري مستمر من طريق إصداره العديد من البحوث الفلسفية الهامة خارج إطار المؤسسة الجامعية.

بدأ أكاديميا فلسفيا، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلسفة عن أطروحته "النزاع بين المطلق والتاريخ في فكر شلينغ" والمنشورة عام 1954. إلا أن اهتمامه الاجتماعي فاق تخصصه الأكاديمي، فعرف بكونه عالم الاجتماع واهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية والفعل الاجتماعي، ودراسة المجتمعات، ولا سيما المجتمع الرأسمالي وتجلياته في ألمانيا خصوصا، وأوروبا عموما، وفي نهاية الخمسينيات ومطلع الستينيات.

كان هابرماس مساعدا لأدورنو في فرانكفورت ثم أصبح لاحقا أستاذا للفلسفة ومديرا لمعهد ماكس بلانك في ستراسبورغ في ألمانيا. أصدر العديد من الكتب الفلسفية الهامة على الصعيد العالمي كتابه العمدة: نظرية الفعل التواصلية واخلاقيات المناقشة والحق والديمقراطية والمعرفة والمصلحة وما بعد ماركس...

1- الفضاء العمومي عند هابرماس

يندرج اهتمام هابرماس بمقولة الفضاء العمومي في إطار اهتماماته المبكرة بالفلسفة السياسية. وقد ساهمت عدة عوامل في هذا الاهتمام، منها ما هو شخصي، ومنها ما هو ظرفي متعلق بالمناخ السياسي لألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية (الأشهب، 2008: 360).

ويعد بحثه الميداني "الطالب والسياسة" من الكتابات الأكاديمية الأولى لهابرماس المنشغلة بالفضاء العمومي السياسي.

قدم هابرماس في كتابه الفضاء العمومي: أركيولوجيا الدعاية باعتبارها مكونا أساسيا للمجتمع البرجوازي، الذي هو في الأصل رسالة تأهيل، دراسة سوسيو تاريخية لتحويلات بنية الفضاء العمومي البرجوازي منذ بدايته إلى يومنا هذا.

ويدافع هابرماس في كتابه عن فكرة اعتبار الفضاء العمومي مقولة فلسفية تبلورت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما يصف لنا التفكك الذي لحق بهذا المفهوم في القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (Jhonson, 2006: 14).

يحلل هابرماس على امتداد 300 صفحة الفضاء العمومي وتحولاته، معتمدا على منهجية أركيولوجية لإبراز دلالة المفهوم منذ اليونان من خلال تناوله مفاهيم مثل الأغورا، ولينتقل في ما بعد إلى كيفية تشكل هذه الفضاء العمومي في العصر الحديث ووظائفه السياسية وكيفية الانتقال من الفضاء العمومي الأدبي إلى الفضاء العمومي السياسي، ودور الطبقة البرجوازية في انبثاق الفضاء العمومي.

ونظرا إلى الدور الكبير الذي أدته الطبقة البرجوازية، فلا بد من الحديث عن التحويلات التي أحدثتها على مجموعة من المفاهيم:

- **مفهوم العام والخاص:** كما تجسد خلال عقود مع العصور الوسطى لم تعد تحدث تطبيقاتها الفعلية إلا مع ظهور الدولة الحديثة التي يقابلها المجتمع المدني، (Habermas, 1988: 16).
- **مفهوم الساحة والمدينة:** حيث أصبحت هذه الأخيرة معقلا تجاريا واقتصاديا لنشاطات البرجوازية وهو أمر يتنافى مع الساحة على المستويين السياسي والثقافي (Habermas, 1988: 40).
- **مفهوم التمثيل والوظيفة:** بحيث سيختفي مفهوم التمثيل ليحل محله مفهوم الوظيفة. فوظيفة الأجهزة الدولية حولت "السلطة الإقطاعية" إلى الشرطة وخواص الأشخاص الخاضعين لها يتشكلون من جمهور حيث إنهم تمارس عليهم هذه السلطة (Habermas, 1988: 29).

2- مفهوم الدعاية باعتباره مكوناً أساسياً للفضاء العمومي

يرجع الفضل في استقلالية وتقدم الفضاء العمومي البرجوازي حسب هابرماس إلى عمل مهم: ازدهار الصحافة. ومن رأي عام يتشكل بخاصة من سكان المدن والبرجوازيين الذين كيفوا عاداتهم القرائية مع الجديد من المنشورات. هكذا، حسب هابرماس، ستتشكل أشكال جديدة من العلاقات الاجتماعية المؤسسة على النقاش واستعمال العقل. نقاش في الصالونات حيث يعلق الناس على الأخبار الواردة من الجرائد وكل فرد يعطي رأيه وتبريره (علوش، 2013: 65).

هذه الحركة على مستوى الإنتاج والنقد من قبل المثقفين قابلتها مساهمة القراء من موقعها كمتتبع للناشآت، بحيث إن الناشرين لم يترددوا في إشراك المساهمة النقدية للمتلقى (Habermas, 1988: 32)، فمبدأ دعاية الإعلام هو في الحقيقة مبدأ مراقبة، استغله الرأي العام البرجوازي للوقوف في وجه السلطة. فهذا المبدأ المنشئ لفضاء عمومي برجوازي بدأ حقيقة في القرن الثامن عشر باعتباره فضاء سياسياً جديداً حيث وضع نفسه بين الدولة والأفراد (علوش، 2013: 66).

إذن سيلعب الفضاء العمومي البرجوازي دور الوسيط، حسب هابرماس، بين حاجات المجتمع والدولة. وهذا التوسط يفترض أن يعتمد بالتدرج على مفهوم الرأي العام. بمعنى آخر، تمثيل موقف وشرعية لنقد عقلائي للسلطة السياسية. فهذا التوسط بين الدولة والمجتمع سيستمر تدريجياً إلى حدود القرنين الثامن عشر والتاسع عشر من طريق نصوص دستورية محددة مثلاً: بنى الدولة الدستورية والانتخابات والصحافة وبخاصة النقاشات البرلمانية المفتوحة على الإعلام. هكذا ستظهر السلطة السياسية وهي خاضعة لمحكمة الرأي العقلاني والشرعي (علوش، 2013: 66).

3- التحولات النبوية للفضاء العمومي: نحو انحراف الوظائف النقدية له

يرجع هابرماس التحولات التي لحقت بالفضاء العمومي إلى عاملين مهمين: الإصلاح الانتخابي في القرن التاسع عشر، وإدماج المقصيين في الفضاء العمومي. حيث أجهزت هذه التغيرات على دور خواص الأشخاص الذين يتشكلون كجمهور ويستخدمون عقولهم داخل سياق من الحرية والاستقلالية في إطار النقاش الذي تعتبر فيه الحجة داحضة لإكراهات السلطة والقوة؛ إذن، من خلال هذا المنتدى النقدي تصبح السلطة خاضعة لإرادة الشعب المتنورة. ذلك أن الوعي السياسي يتطور في إطار الفضاء العمومي البرجوازي والذي يجد تعبيره داخل مؤسسات مثلاً: الصحافة والبرلمان. هذه الصورة كما تجسدت في القرن الثامن عشر حدث لها انحراف عند حصول الكتلة على حق التصويت. فالجمعيات والنقابات والأحزاب السياسية أصبحوا يدافعون عن مصالح زبائنهم تحت غطاء سياسي مباشر (الهاللي، 2011)، وهو ما أدى إلى إتلاف كل من دور المجتمع والدولة. وهذا التدخل الكبير للدولة في جميع مجالات الحياة أدى، حسب هابرماس، إلى ما يسميه "إعادة الفيودالية إلى الفضاء العمومي" فالتدخل المتعدد لفضاءات عامة وخاصة، بالاعتماد على تقنيات التسيير الإداري والتقني، أضعف الوظائف النقدية للفضاء العمومي. إذ إن الرأي العام فقد دوره كذلك بسبب خضوعه لمجموعة المصالح التي تستعمل تقنية الإشهار لمصلحتها الخاصة ولاستمرارية سلطتها. حيث تم تعويض الدعاية

النقدية بدعاية الهتاف والتهويل، الأمر الذي جعل الفضاء العمومي يتجه نحو فضاء التهليل والهتاف. حيث أصبحت السياسة مهرجانا وحل التسويق السياسي محل الخطابة. في عصر الدعاية المتلاعبة بالقول، ليس المحرك هو الرأي العام، بل التوافق المصنوع الممهّد للإجماع (علوش، 2013: 68).

4- الخلفية الفلسفية لهابرماس

في مجمل أطروحته حول الفضاء العمومي، ظل هابرماس أقرب إلى كانط منه إلى ماركس وهيغل. وهذا ما جعله بالفعل يبتعد عن الخط الماركسي لمدرسة فرانكفورت. بالإضافة إلى تغييره للطبقة العاملة التي تعتبر محرك التاريخ حسب الماركسية. في الحقيقة نجد تأثير كانط واضحا على هابرماس، وبخاصة في مبدأ العمومية بوصفه مبدأ نقديا، وهو ما حدا بهابرماس على القول إن الفضاء العمومي لم يتبلور إلا في القرن الثامن عشر. ولا غرابة في أن نجده يعود إلى النص التأسيسي لكانط ما الأنوار؟ ليسترشد عبارة الاستعمال العمومي للعقل ليتناول قضايا أخلاقية وسياسية التي تمه المواطنين. فهذا الأخير مطالب باستخدام عقله استخداما نقديا حتى يصبح مواطنا فاعلا.

رابعا: الفضاء العمومي والدين

نظرا إلى تزايد وتيرة العنف في العالم، كثر الحديث عن دور الدين في الفضاء العمومي، وبخاصة بعد الحدث المزلزل للعالم (11 أيلول/سبتمبر) في أمريكا. في هذا السياق أجرت الباحثة الأمريكية جيوفان بورادوري حوارا مطولا مشتركا مع هابرماس وجاك دريدا حول أسباب الإرهاب والعنف ودواعيهما. حيث نجد فيلسوفنا هابرماس استند في إجابته إلى خلفية فلسفية سياسية لراولز وكانط ومكتسبات دولة الحق والقانون. وفي السياق ذاته نجده يدخل في حوار مع بابا الكنيسة السابق راتزينغر حول دور الدين في الفضاء العمومي. وللإجابة عن هذا التحدي الذي يطرحه دور الدين في عصرنا، قام بنحت مصطلح "المجتمعات ما بعد العلمانية". وعلى هذا الأساس اعتبر هابرماس أن الجماعات الدينية لا يمكن اعتبارها جماعات عقلانية، إلا إذا امتنعت بطريقة اختيارية من فرض حقائقها الإيمانية بالعنف وممارسة كل ضغط نضالي على الضمير الأخلاقي عند المؤمنين ومن الامتناع عن التلاعب بهم واستخدامهم في أعمال هجومية انتحارية. كما أن مبدأ الفصل بين الكنائس والدولة يوجب على مؤسسات الدولة التجرد أو النزاهة كاملة في تعاملها مع الجماعات الدينية (بومنيير، 2013: 156).

وفي مقال لهابرماس "حول الدين والعلمانية" دعا إلى الاعتراف المتبادل بين التيارين الديني والعلماني قصد تحقيق التفاهم والعيش المشترك، في إطار دولة دستورية علمانية. إذ يجب على الأطراف المعنية نفسها أن تتفق على الفواصل الهشة التي تحدد، من جهة، الحق الإيجابي في ممارسة الشعائر الدينية، ومن جهة ثانية الحرية السلبية التي يراعي كل واحد منا الآخر في ممارسته الدينية (بومنيير، 2013: 153). وفي ضوء العودة القوية للدين في الفضاء العمومي والتحديات التي يطرحها العلم على تصوراتنا الدينية، دعا كل من هابرماس وراتزينغر-بابا الكنيسة السابق- إلى ضرورة التكامل بين العلم والدين.

إذ يمكن للمجتمع العلماني والدين على حد سواء، إذا ما فهما علمانية المجتمع بوصفها صيرورة تعلم متكامل أن يقدم مساهمتها في ما يتعلق بالمواضيع التي يختلف فيها الناس في الحياة العامة، وكذلك لأسباب عقلية أن يأخذ كل واحد منهما الآخر محل جد" (لشهب وبوطالب، 2005: 96).

خامسا: التقويم النقدي للفضاء العمومي البرجوازي

نبذة عن نانسي فرايزر

ولدت نانسي فرايزر في 20 أيار/مايو 1947، وهي فيلسوفة أمريكية نسوية وتنتمي إلى تيار ما بعد البنيوية. وهي الآن أستاذة جامعية بنيويورك. لها العديد من الكتب:

- 1- ما هي العدالة الاجتماعية؟ إعادة توزيع والاعتراف 2011.
- 2- إعادة توزيع والاعتراف نحو تبادل فلسفي سياسي بالاشتراك مع هونيث 2003.
- 3- التصور الراديكالي: بين إعادة التوزيع والاعتراف 2003.
- 4- مضامين نسوية نحو تبادل فلسفي بالاشتراك مع سيلا بنحبيب وجوديث باتلر وكورنيل 1994.

1- من الفضاء العمومي البرجوازي إلى ما بعد الفضاء العمومي البرجوازي

في مقال للفيلسوفة الأمريكية الشهيرة نانسي فرايزر "إعادة التفكير في الفضاء العمومي" (Fraser, 1993: 109-142) حاولت التأسيس لنظرية نقدية جديدة، والتنظير لفضاء عمومي جديد يتجاوز الفضاء العمومي البرجوازي الذي نظر له هابرماس في كتابه المعروف الفضاء العمومي (Habermas, 1992).

فلا أحد يشك في أهمية الفضاء العمومي للنظرية النقدية للمجتمع وللممارسة السياسية الديمقراطية... لكن نانسي فرايزر تنتقد اعتبار هابرماس أن الفضاء العمومي البرجوازي هو الفضاء العمومي الوحيد مغيبا باقي الفضاءات الأخرى. السبب الذي جعل هابرماس يعتمد على الفضاء العمومي البرجوازي:

أ- حضور المرجعية الكانطية في تناول هابرماس للفضاء العمومي وتزامن عصره مع انبثاق المجتمع البرجوازي.

ب- اعتبار هابرماس أن الديمقراطية تأسست مع البرجوازية في القرن الثامن عشر. حيث تم التركيز على ديمقراطية النخبة، حيث كان الكثير من الفئات الشعبية محروما المشاركة في الديمقراطية والعملية السياسية.

وتذكرنا فرايزر في سياق نقدها لهابرماس بالمبادئ الأساسية التي أطرت أطروحة هابرماس:

- (1) الفضاء العمومي يتعارض مع المصالح الخاصة والنقاشات الخاصة.
- (2) الخير المشترك والمصلحة العامة هي الغاية.
- (3) يمثل الفضاء العمومي قوة مضادة للدولة.
- (4) الفضاء العمومي يعتمد على طوبى النقاش العقلاني المؤدي إلى الإجماع.
- (5) يسمح بتشكيل رأي عام مرتكز على الحجاج.
- (6) يضع اللا مساواة الاجتماعية جانبا ليتم النقاش بين ذوات متساوية (Fraser, 2012). ولا ترفض نانسي فرايزر، في الحقيقة، فكرة الفضاء العمومي البرجوازي جملة وتفصيلا، فهي تقبله من الناحية المعيارية؛ لكن تسائله من جديد حول بعض القضايا:

- (أ) المساواة بين المشاركين في النقاش.
- (ب) تقديم الوحدة على تعددية الجماهير.
- (ج) إشكالية التعارض بين الفضاء العام والخاص.
- (د) الفصل الصارم بين المجتمع المدني والدولة.

وتختلف نانسي فرايزر مع هابرماس في الكثير من النقاط أبرزها:

أولا: نجد فرايزر في مقالها "إعادة التفكير في الفضاء العمومي" تقول "إن المشكل ليس فقط في أن هابرماس يؤمّل (Idealises) الفضاء العمومي البرجوازي، بل يفشل كذلك في معالجة الفضاءات العمومية الأخرى المنافسة: اللا برجوازية واللا ليبرالية" (Fraser, 1993: 115). فالعلاقة بين هذه الفضاءات ليست علاقة تنافس بل علاقة صراع. وهذا الصراع ليس حدثا عرضيا يخص نهاية القرن الثامن عشر أو التاسع عشر، كما يذهب إلى ذلك هابرماس، بل مسألة بنيوية تمس سياقات ممتدة تاريخيا تعكس نزوعا أيديولوجيا ذكوريا يسعى لإقصاء المرأة من الفضاء العمومي (Fraser, 1993: 116)، وتتفق نانسي فرايزر مع هابرماس في معيارية الفضاء العمومي، فتطالب بالمساواة بين المشاركين في الفضاء العمومي وعدم إقصاء أي طرف: النساء والطبقة العاملة والعموم والسماح لهم بالتعبير عن هوياتهم ومطالبهم في مختلف الساحات.

ثانياً: لا تتفق نانسي فرايزر مع هابرماس في كون الجمهور وحيداً-وأن ساحة النقاش وحيدة-وأن الجمهور موحد.

بالاعتماد على أعمال ماري راين (Ryan, 1990)، التي كشفت أن انبثاق الفضاء العمومي البرجوازي كان في الأصل متزامناً مع فضاءات أخرى غيبتها هابرماس: فلاحون، نساء النخبة، طبقة عاملة. فلا بد من الاعتراف-حسب فرايزر-بتعدد الجماهير لدمقرطة الفضاء العمومي ورفع الحيف عن باقي الفضاءات المهمشة. وفي هذا السياق ترفض نانسي فكرة أن ساحة النقاش وحيدة، لكونها تغيب عن أذهاننا باقي ساحات النقاش الموجودة آنذاك المعبرة عن طموحات وهويات الفئات الاجتماعية الأخرى. كذلك ترد فرايزر على هابرماس بأن الجمهور لم يكن موحداً، بل كان متعددًا. لأن الفضاء العمومي هو في جوهره-حسب فرايزر-صراعي، المهم فيه ليس الوصول إلى الإجماع بقدر ما يهم التسويات. وهنا تتفق مع المفكر الإنكليزي جيف إييلي "بكون الفضاء العمومي هو إطار منظم يتم فيه إنتاج الاحتجاج أو التفاوض الثقافي والأيدولوجي للجماهير المتعددة" (Fraser, 2012).

ثالثاً: في كتابه الفضاء العمومي يستنكر هابرماس تصاعد النزعة الحميمية وتزايد الأسئلة الخاصة في المجال العام التي تعود إلى وسائل الإعلام؛ حيث نجد نانسي تدافع بشدة عن ضرورة إدماج الأسئلة الخاصة إلى الفضاء العمومي حتى تستفيد الأقليات منه وخصوصاً النساء لطرح مطالبهن. لكن الفضاء العمومي البرجوازي غيب مطالب النساء بدعوى التعارض بين الدائرة الخاصة والدائرة العامة وأن النساء ضمن الدائرة الخاصة، وهذا ما أكدته الأبحاث التاريخية حول اليونان القديمة والمجتمعات البرجوازية في القرن الثامن عشر.

رابعاً: تقول نانسي إن المجتمع المدني يمكن أن يأخذ شكلين: الأول، المجتمع المدني زائد السوق. والشكل الثاني، المجتمع المدني باعتباره فضاء عمومياً زائداً للجمعيات. تلاحظ نانسي في الشكل الأول أن المشاركة في النقاش لن تتم دون مساواة أصلية بين المشاركين. الفصل الصارم بين المجتمع المدني والدولة في المجتمع النيوليبرالي لن يخدم سوى الطبقات البرجوازية ويحرم باقي الفئات المشاركة الكاملة.

أما في الشكل الثاني، فنجد هابرماس يدافع بقوة عن الفصل بين المجتمع المدني والدولة حتى لا يتمهاها وتفقد سلطة المراقبة التي يتكلف بها الفضاء العمومي. هنا تقترح نانسي فرايزر أنه إذا كان المجتمع المدني والدولة يندرجان في إطار فصل خالص؛ فإن الفضاء العمومي لن يصل إلى تصور أشكال التسيير الذاتي والتنسيق بين الجماهير وتحمل المسؤولية السياسية، حيث هي المهام الأساسية للمجتمع الديمقراطي الحقيقي.

فإذا كانت النظرية النقدية المعاصرة للفضاء العمومي تحتاج إلى التفكير في إطار المساواة بين جميع المواطنين، فإن الفضاء العمومي البرجوازي لن يفى بالغرض.

وتطرح نانسي فرايزر مجموعة من الاقتراحات للخروج من هذه النواقص:

- تشجيع المساواة عوض تجاهل اللامساواة الاجتماعية.
- السماح لمختلف الجماهير بالتعبير عن اختلافاتها ومطالبها من طريق مختلف فضاءات النقاش، لكن أيضا من طريق فضاء عمومي كوني.
- فتح مجال النقاش للقضايا الخاصة (مجال خاص).
- إعادة التفكير في الفضاء العمومي باعتباره حاملا لمسؤوليات سياسية.

2- من الفضاء العمومي الوطني إلى الفضاء العمومي العابر للأوطان

كثر الحديث في الأوساط الأكاديمية عن "فضاءات عمومية مشتتة": فضاءات عمومية جهوية، فضاءات عمومية محلية، وكذلك فضاء عمومي عابر للأوطان في طور التأسيس. من الصعب الحديث عنه لأنه غير واضح المعالم، لكنه مهم لإعادة بناء النظرية الديمقراطية لمجتمعات ما بعد الدولة-الأمة. تذكرنا نانسي، في سياق نقدها لهابرماس، بالإطار السياسي التاريخي للفضاء العمومي مع ظهور الدولة-الأمة مع اتفاقية وستفاليا⁽¹⁾، لكن مع التحولات التي لحقت بالدولة-الأمة ورياح العولمة التي هبت على العالم وظهور إشكاليات التعدد الثقافي، هنا تطرح نانسي فرايزر التساؤل التالي: هل الفضاء العمومي لهابرماسي المرتبط بسياق الدولة-الأمة قادر على مساندة هذه التحولات باعتباره أداة نقدية للحاضر؟ أم أنه لا بد من إعادة تأسيسه في فضاء عمومي عابر للأوطان⁽²⁾؟

في الحالة الأخيرة، لا تقتضي المهمة تأسيسا مفهوما للفضاء العمومي عابرا للأوطان، وإنما يجب إعادة النظر في النظرية النقدية بطريقة تجعله يساير التحولات بإمكاناته التحررية لمجتمعات ما بعد الدولة-الأمة.

(1) "صلح وستفاليا" (Peace of Westphalia): هو اسم عام يطلق على معاهدتي السلام اللتين دارت المفاوضات بشأنهما في مدينتي أسنابروك (Osnabrück) ومونستر (Münster) في وستفاليا، وتم التوقيع عليهما في 15 أيار/مايو 1648، و24 تشرين الأول/أكتوبر 1648 وكتبنا باللغة الفرنسية. وقد أنهت هذه المعاهدات حرب الأعوام الثلاثين في الإمبراطورية الرومانية المقدسة (معظم الأراضي في ألمانيا اليوم) وحرب الأعوام الثمانين بين إسبانيا وجمهورية الأراضي الواطئة السبع المتحدة. ووقعها مندوبون عن: الإمبراطورية الرومانية المقدسة فرديناند الثالث (هابسبورغ)، ممالك فرنسا، إسبانيا والسويد، والجمهورية الهولندية والإمارات البروتستانتية التابعة للإمبراطورية الألمانية المقدسة.

يعتبر صلح وستفاليا أول اتفاق دبلوماسي في العصور الحديثة، وقد أرسى نظاما جديدا في أوروبا الوسطى مبنيا على مبدأ سيادة الدول. أصبحت مقررات هذا الصلح جزءا من القوانين الدستورية للإمبراطورية الرومانية المقدسة. وغالبا ما تعتبر اتفاقية البرينييه الموقعة سنة 1659 بين فرنسا وإسبانيا جزءا من الاتفاق العام على صلح وستفاليا.

(2) <http://www.republicart.net/disc/publicum/fraser01_fr.htm>.

وفي سياق نقدها لها برماس، تذكرنا بالافتراضات النظرية في ما يخص تأسيس الفضاء العمومي:

1- جهاز دولة وطني يمارس سلطته على إقليم.

2- اقتصاد وطني مرتبط بالإقليم مؤسس بطريقة شرعية.

3- مواطنة قومية مستندة على قاعدة الدولة-الأمة.

4- لغة قومية.

5- أدب قومي.

6- بنية تحتية إعلامية: إعلام راديو، صحافة.

تعترض نانسي فرايزر على هايرماس في هذه النقاط التي أشرنا إليها سابقا:

أولاً، طرأ الكثير من التحولات على مفهوم السيادة الوطنية، فأصبحت الآن تتقاسمها مع الدولة عدة هيئات ومنظمات دولية (الأمم المتحدة) و جهوية (الاتحاد الأوروبي) سوام سياسيا أو اقتصاديا (البنك الدولي النقد الدولي) أو ثقافيا أو عسكريا (حلف شمال الأطلسي والمعاهدات العسكرية...). أصبحت السيادة اليوم مرتبطة بمستويات متعددة بدءا بالوطني مرورا بالجهوي وأخيرا الدولي.

ثانياً، لم يعد الاقتصاد الوطني المرتبط بالدولة-الأمة هو السائد، بل نجد الشركات المتعددة الجنسيات هي صاحبة السلطة المطلقة وهي المهيمنة على السوق. بل بتنا اليوم نتحدث عن أسواق مالية عالمية وأي سوق مالي ليس بمنأى عن التقلبات، في ظل هذه الأوضاع لا يمكن الحديث عن مراقبة الدولة للاقتصاد.

ثالثاً، مع تزايد أعداد الهجرة برزت إلى السطح إشكالية التعدد الثقافي وحقوق الأقليات الدينية أو العرقية. الأمر الذي جعلنا نتحدث عن المواطنة الدستورية وليس المواطنة القائمة على القومية أو الوطنية فشتان بين مواطنة الدولة الأمة ومواطنة ما بعد الدولة-الأمة.

رابعاً، في السابق كانت الدولة-الأمة تعتمد على مقوم اللغة القومية، لكن اليوم أصبحنا نتحدث عن تعدد اللغات بالنظر إلى التعدد الثقافي والديني والعربي. فالكثير من البلدان ثنائية اللغة أو ثلاثية اللغة.

خامساً، كانت الدولة-الأمة تعتمد على أدبها القومي لترسيخ هويتها وتماسكها، لكن اليوم نتحدث عن أدب عالمي وهجانة ثقافية بين المحلي والعالمي، ولم يعد اليوم الأدب يقتصر في موضوعاته على ما هو محلي بل يطرح قضايا ومواضيع عالمية.

سادسا: مع تطور وسائل الإعلام أصبح العالم قرية كونية. حيث أصبحت وسائل الإعلام خارج سيطرة الدولة وبتنا أمام إمبراطوريات إعلامية كبيرة مثل إمبراطورية مردوخ تتحكم في المشهد الإعلامي العالمي.

أمام هذه التحولات الكبيرة السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية التي عرفها العالم تطرح نانسي فرايزر مجموعة من التساؤلات: هل الفضاء العمومي قادر على القيام بمهامه السياسية الديمقراطية؟ هل من الممكن أن يفضي الفضاء العمومي إلى رأي عام قوي مبني على حجاج عقلايين متوخيا المصلحة العامة؟ هل من الممكن أن يؤثر الفضاء العمومي في السلطات؟ وما هي التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية التي لا بد من القيام بها ليقوم الفضاء العمومي بدوره الحقيقي (3)؟

تطرح نانسي فرايزر، ردا على هذه الأسئلة، فكرتين لتجاوز التناقضين الرئيسيين:

التناقض الأول، هو عدم التوافق بين الدولة-الأمة من جهة، والمؤسسات الدولية من جهة أخرى. ولا بد لتجاوز هذا المشكل من مؤسسة السلط الدولية الجديدة وإخضاعها لمراقبة كونية.

التناقض الثاني، هو عدم التطابق بين مواطنة الدولة-الأمة ومواطنة تجمعات ما بعد الدولة-الأمة. لتجاوز هذا المشكل يجب إضفاء الطابع المؤسسي على المواطنة العالمية ومن ثم التأسيس لفضاءات كونية تسمح بإنتاج تضامانات على أساس واسع الأفق يتجاوز الدين والقومية والعرق.

ولا يمكن لهذه الفضاءات العمومية الكونية أن تؤثر إلا إذا كانت تتمتع بسلطة سيادية مأسسة. وفي غياب هذا التحول الكبير المؤسسي لا يمكن لهذه الحركات الاجتماعية الكونية، ولا الفضاءات العمومية الكونية، أن تنهض بدورها التحرري والسياسي.

خاتمة

بالرغم من التحولات التي لحقت بمفهوم الفضاء العمومي، فلا يزال يحظى بأهمية كبيرة في الدراسات الفلسفية السياسية وبخاصة بعد الربيع العربي الديمقراطي، لدوره الكبير في ترسيخ قيم الديمقراطية والحرية والتعددية. فهل فضاءنا العربي قادر على ترسيخ هذه القيم؟ وهل من الممكن تجاوز الطابع المحلي لفضائنا العمومي ليصبح فضاء عموميا عابرا للأوطان؟

المراجع

- احمد، محمد وقيع الله (2011). مدخل إلى الفلسفة السياسية. دمشق: دار الفكر.
- الأشهب، محمد (2008). مذهب التواصل عند هابرماس. " (أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، فاس، 2008).
- بومنيير، كمال (2013). قراءات في الفكر النقدي. الجزائر: دار نشر كنوز الحكمة.

العزماني، عز الدين (2013). الربيع الديمقراطي العربي " وإمكانية العمومية النقدية. " مؤمنون

بلا حدود: 13 أيار/مايو <<http://www.mominoun.com/arabic/ar->

sa/articles/%d8%af%d8%b1%d8%a7%d8%b3%d8%a7%d8%aa-%d9%88-
%d8%a3%d8%a8%d8%ad%d8%a7%d8%a
b/%d8%a7%d9%84%d8%b1%d8%a8%d9%8a%d8%b9%d8%a7%d9%84%d8%af%
d9%8a-%d9%85%d9%88%d9%82%d8%b1%d8%a7%d8%b7%d9%8a--
%d8%a7%d9%84%d8%b9%d8%b1%d8%a8%d9%8a-
%d9%88%d8%a5%d9%85%d9%83%d8%a7%d9%86-
%d8%a7%d9%84%d8%b9%d9%85%d9%88%d9%85%d9%8a%d8%a9-
%d8%a7%d9%84%d9%86%d9%82%d8%af%d9%8a%d8%a9/2177>

علوش، نور الدين (2013). المدرسة النقدية الألمانية: نماذج مختارة من الجيل الأول إلى الجيل الثالث. بيروت:

دار الفارابي.

لشهب، حميد وعبد الهادي بوطالب (2005). العقل والدين في المجتمع الحديث وما بعد الحديث: نموذج

المغرب والدول الجرمانية. الرباط: (د. ن.).

الهلايلي، عزيز (2011). عرض حول الفضاء العمومي عند هابرماس. "رسالة ماجستير، فلسفة التواصل،

تطوان).

- Fraser, Nancy (1993). «Rethinking the Public Sphere: A Contribution to a Critique of Actually Existing Democracy.» dans: Craig Calhoun (ed.). Habermas and the Public Sphere. London: The MIT Press. (Studies in Contemporary German Social Thought)
- Fraser, Nancy (2012). «Repenser la sphère publique: Une contribution à la critique de la démocratie telle qu'elle existe.» Marie-Noëlle Doutreix, Octobre, <<http://p5.storage.canalblog.com/54/08/926132/81188826.pdf>>.
- Habermas, Jürgen (1988). L'espace public: Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise. Traduit par Marc De Launay. Paris: Payot. (Critique de la politique)
- Habermas, Jürgen (1992). L'espace public: Archéologie de la publicité comme dimension constitutive de la société bourgeoise. Traduit par Marc De Launay. Paris: Payot. (Critique de la politique)
- Habermas, Jürgen (1997). Droit et démocratie: Entre faits et normes. Traduit par Christian Bouchind homme et Rainer Rochlitz. Paris: Gallimard. (NRF Essais) (Habermas, 1997: 387)
- Jhonson, Paulin (2006). Habermas Rescuing the Public Sphere. London: Routledge.
- Ryan, Mary P. (1990). Women in Public: Between Banners and Ballots, 1825-1880. London: Johns Hopkins University Press (The Johns Hopkins Symposia in Comparative History; Book 16)